

دلائل الإعجاز

أنه أوتيتها وأنه ممنون يكمل للحكم ويصح منه القضاء فجعل يقول القول لو علم غيبه لاستحيا منه . فأما الذين يحسسون بالنقص من نفسه ويعلم أنه قد علم علما قد أوتيه من سواه فأنت منه في راحة وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره وأن يتكلسف ما ليس بأهل به .

وإذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس في العلم بها واتفقوا على أن البناء عليها إذا أخطأ فيه المخطئ ثم أعجب برأيه لم يستطع ردّه عن هواه وصرفه عن الرأي الذي رآه إلا بعهد الجهد وإلا بعد أن يكون حصيافا عاقلا ثباتا إذا نُبِّه انتبه وإذا قيل : إن عليك بقية من النظر وقف وأصغى وخشي أن يكون قد غرّ فاحتاط باستماع ما يقال له وأنف من أن يلاج من غير بيّنة ويتطيل لغير حجة . وكان من هذا وصفه يعزّس ويقل فكيف بأن تردّ الناس عن رأيهم في هذا الشأن وأصلك الذي تردّهم إليه وتعوّل في محاجّتهم عليه استشهاد القرائح وسبر النفوس وفلايتها وما يعرض فيها من الأريحية عندما تسمع . وكان ذلك الذي يفتح لك سمعهم ويكشف الغطاء عن أعينهم ويصرف إليك أوجههم . وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأي ويفتي ويقضي إلا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته وصحّ ذوقه وتمّت أدواته .

فإذا قلت لهم : " إنكم قد أتيتم من أنفسكم " ردّوا عليك مثله وقالوا : " لا بل قرائحنا اصحّ ونظرنا أصدق وحسبنا أذكى . وإنما الآفة فيكم لأنكم خيّلتم إلى نفسكم أمورا لا حاصل لها وأوهمكم الهوى والميل أن توجبوا لأحد الذّلمين المتساويين فضلا على الآخر من غير أن يكون ذلك الفضل معقولا " . فتبقى في أيديهم حاسيرا لا تملك غير التعجّب . فليس الكلام إذا بمغنى عنك ولا القول بنافع ولا الحجّة مسموعة حتى تجد من فيه عون لك على نفسه . ومن أتي عليك أذى طبعه فردّه إليك وفتح سمعته لك ورفّع الحجاب بينك وبينه وأخذ به إلى حيث أنت وصرف ناظره إلى الجهة التي إليها أوامات . فاستبدل بالذّفار أنسا وارك من بعد الإباء قبولا . ولم يكن الأمر على هذه الجملة إلا لأنه